

صديق جواد سليمان
ندوة في "مركز الحوار العربي-الأمريكي"
واشنطن
٩ يناير ٢٠٠٢

أمريكا والعالم العربي: أيهما أساء فهم الآخر؟

شكراً أخي صبحي... هو في الواقع نطف منك ورعاية تحيطني بها دوماً، من ذلك دعوتي للتحدث في هذا المنتدى المتميز بنشاطه الفكري وأسلوبه في الحوار، والذي أنا مدين له، ومدين لك لقيامك عليه... مدين بما كسبت هنا من معرفة وكونت من صداقات اعدتها من خير مكاسب في الحياة. شكر الله سعيك، ووفقك لكل خير.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وطاب مساؤكم

وأنا بيتكم من جديد دعني أبدأ بالإعراب عن سعادتني بالعودة. كنت منذ أغسطس الماضي على سفر: حلا وترحالا بين عُمان والإمارات العربية والكويت. كنت في مسقط يوم ١١-٩. قبل الحدث بيوم أحسست بضيق دونما سبب أعرف له - إحساسٍ دفعني إلى أن أكتب للأخ صبحي عشية الحدث أن ساعة الصديق توشك أن تقع لتقوض جل هذا الجهد الذي بذل طوال السنين الماضية لأجل إبقاء العلاقة العربية الأمريكية سالكة بالرغم من عثارها المتكرر بشتى العقبات. كتبت أيضاً، أن نبوءة صاميوئل هنتجتن بصراع الحضارات تكتسب صدقية أكبر، وأن زعم قواد عجمي أن الدول لا الحضارات هي الفاعل الحقيقي على مسرح الأحداث، زعم يتراجع أمام نزوع الشعوب إلى تأكيد خصوصياتها الحضارية بمعزل عن اهتمامات الدول.

لا، لم يكن رجما بالغيب، ولا علما مسبقا بما كان حينه يدبر في الخفاء وعلى وشك أن يفجر في العراق. كان مجرد شعور كئيب بانزلاق العلاقة العربية الأمريكية مع مرور كل يوم إلى خفض جديد - أمرٌ صرت أخشى أن يجر إلى مواجهة مستديمة تستنزف الطاقة لدينا وتعطل الإصلاح.

إثر الحدث لم يكن يجمعي مجلس إلا ويطغي عليه ذكر الحدث ومسبباته. وقد راعني ما كنت أسمعه من بعض الناس من تبرير للحدث وتغاض عن عنصر الإرهاب فيه. راعني أيضاً أن أجد أن الامتعاض من أمريكا يحمل العديد من العرب على تصديق ما لا يستقيم - من قبيل ما راج إثر الحدث مباشرة أن ٤٠٠٠ يهودي تخلقوا عن العمل في البرجين ذلك الصباح، لكونهم على علم مسبق بما سيفعل.

من جانب آخر، كنت في نفسي أتمس العذر لمن أستمع إليهم لمحدودية معرفتهم بأمريكا، ولكون ما تتكون لديهم من انطباعات عن هذه الأمة تأتي متأثرة بالدرجة الأولى بما يمسون، بحق وفي واقع الحال، من إجحاف السياسة الأمريكية الداعمة دأباً إسرائيل في رفضها الظالم لحقوق الشعب الفلسطيني.

وراء هذا كنت أتمس للامتعاض سبباً ذا طابع إيدولوجي: تحرج مستبطن من تفوق الحضارة الغربية عامة والخبرة الأمريكية خاصة على سائر حضارات العالم في سائر نشاطات البشر: كنت ألاحظ هذا تحديداً على خطاب الإسلاميين، إذ أنهم - صواباً على ما أرى - يفرؤون في نجاح الحضارة الغربية نجاحاً للفكر العلماني المتناقض مع الفكر الديني، سيما أن هذا الفكر العلماني قد تبنته وترجمت هديه عملياً في تنظيم حياتها العامة سائر مجتمعات هذا العصر، الدائنة بمختلف الأديان.

في الوقت نفسه، كنت أتابع - على بعد - ما تتخذ هنا في الولايات المتحدة من إجراءات أمنية صارمة باعثها تخوف شديد إزاء احتمال حدوث عمليات إرهابية أخرى، وأرصد ما يجري من تركيز تحديداً على العرب ضمن مناخ مشحون إزاءهم يارتياح شديد. كنت أسأله من أسر قلقة على أولاد لها يدرسون هنا في مختلف الجامعات، إن غدوا عرضة لأذى أو اعتداء. كان يحزنني كلام أمريكي أقرأه أو أسمعه عن العرب، مشوب بسوء فهم، وتحامل، وانتقاص.

من هذا وذاك نشأ لدي التساؤل الذي اتخذته عنواناً لهذا الحديث: أمريكا والعالم العربي: أيهما أساء فهم الآخر؟ حديثي، إذن، هو جواب على هذا التساؤل، وجوابي، بإيجاز، هو أن كليهما أساء فهم الآخر. في التفاعل بين الأمريكيين والعرب أرى سوء فهم متبادل مزمن، وأرى أن قلة الإكترات باستمراره وتفاقمه يضر بالعلاقة العربية الأمريكية باطراد مخيف.

تنظير عام:

كنتظير عام، يساء فهم الآخر عندما يفهم الآخر على غير ما هو عليه، عندما تعزى تصرفاته لغايات ليست واردة لديه، عندما يظن به ظن السوء في جل ما يقول ويفعل ويجمع. إساءة فهم الآخر، بهذا التعريف، ظاهرة دارجة في

سياق التفاعل البشري. إنه يبرز بين أفراد ويبرز بين جماعات. على صعيد أخطر، سوء الفهم يحصل ما بين شعوب، ما بين ثقافات، ما بين أديان. فإذا ترك ليستمروا على هذه الصعد العامة، فإنه يستفحل حتى يصبغ مجمل منظور الحضارات وتصرفاتها إزاء بعضها البعض. عندها تقترب ساعة صدام كبير. عندها، ما بدأ خلافاً محدداً ينتهي صراعاً مطلقاً يسري أثره في الأجيال.

الخطورة في سوء الفهم، إذن، ليست في نشوئه ابتداءً بقدر ما هي في تركه لاحقاً. ليستمروا، فيتعاقم، فيتفجر. على المسرح العالمي المعاصر نرى عدداً من حالات سوء الفهم: نراها تشتد وتخف، تنشأ وتزول: نراها ما بين دول متحالفة استراتيجياً، وما بين دول تتبادل الاعتماد في أمور حيوية، ما بين دول تترابط بصيغ تعاونية وثيقة في أمور ذات نفع مشترك. نرى حالات سوء الفهم ما بين دول تتشارك شعوبها ذات الخبرة التاريخية والثقافة والدين، كأقطار الوطن العربي. إجمالاً، نرى حالات سوء الفهم تطفح دون انقطاع في تدافع الأفراد والمجتمعات عبر العالم.

لكن في المعتاد، حالات سوء الفهم سرعان ما تشخص فتصحح، أو تطوق، أو تترك جانباً ريثما تخف وطأها أو يستجد ظرفاً أنسب لمعالجتها فتجاوزها بعد حين. أما حيث تترك لتتعاقم، فهي تزداد تمنعاً على التصحيح. سياسياً، من السهل المغربي لأيما مجتمع أن يلوم أوجه قصور كامن في فهمه للمجتمع الآخر على قصور في فهم المجتمع الآخر له: بذلك تنشأ حلقة مفرغة لسوء فهم متبادل مزمن. إن السياسيين والمتمسكين بالأعداء من الوطنيين قلما يتخلون عن عادة تبرير عجزهم الذاتي عن تصحيح الأمور بادعاء أن عجزهم هو من صنع أجاتب مغرضين.

لكن ذلك لا يعود يفيد بعد حين. التماس أذكار قديمة، اجترار حجج اجترت مئات المرات من قبل، تجاهل حقائق مستجدة، صعوبة، وضائقة، رفض نقد الذات، كل ذلك يركم الضرر ويزيد من تعقيد الأمور. حتى أن تعود الأمم لتتفحص بصدق ما يكدر بينها العلاقات، حتى أن تعود لتقيم بنظر شديد الإشكالات التي تغذي ما يسري بينها من سوء فهم، حتى أن تتبين وضوحاً وخيم العواقب التي تنتظر إخفاقها في إزالة تلك المكدرات والإشكالات - حتى أن تبادر إلى ذلك على نحو جاد وخليص، لا شيء يحل أو يسوي، ولا أرضية ترسي لبداية عهد جديد.

العلاقة العربية-الأمريكية:

في إطار ما نحن بصدده في هذا الحديث، من الواضح أن بين الولايات المتحدة والعالم العربي يعيش سوء فهم متبادل: عويص، مزمن، مقلق، ... سوء فهم لا يفتأ يلون نظرة كل منهما للآخر، كما لا يفتأ يعقد ويصعب تعاملهما مع ما بينهما من قضايا حيوية، سياسية، استراتيجية، اقتصادية، وغير ذلك. من خلال ما مارست من عمل سياسي في سنوات خلت، أذكر أنني أدركت مبكراً ملازمة هذا الإشكال للحوار العربي الأمريكي، الأمر الذي حدا بي - أنا الذي ما كنت أعرف عن الخلفية الأمريكية شينا يذكر - أن أندرس الخبرة الأمريكية ما استطعت لأتمكن بوعي بها من مخاطبة النظير الأمريكي خطاباً يفهمه بيسر. كنت أرى، كما لا زلت، أنه لكي تتجح العلاقة ما بيننا وتستقر وتثمر، لا يجدي أن نتحدث عن المصالح بعزل عن رغبة خالصة في تحسين فهم بعضنا لبعض. ما يجدي، ويمكن أن يرسي العلاقة بيننا على نهج سليم، هو أن نتحدث عن المصالح ونعمل على تطويرها وفق منظور فكري وخطي مشترك أو متوافق، وضمن مناخ حسن ظن متبادل.

اليوم، أكثر من أي وقت مضى، تستدعي العلاقة العربية الأمريكية مراجعة وتقوية على نحو شامل وجذري: تستدعي تصويبا في المضمون، ترشيداً في المسار، تحديداً للوجهة، وإزالة لما علق بها من سوء فهم متبادل متراكم. لقد استفدنا ما كان للعلاقة العربية الأمريكية من رصيد إيجابي تكون لها في عهود خلت، وأرى أن حان الوقت لنبنى منذ اليوم رصيماً جديداً يقينا معاً مهالك صدام حضاري من قبيل ما أنذر به صاميوعل هنتجتن عام ١٩٩٣، وصارت نذره اليوم تلوح مهددة في الأفق.

بناءات سوء الفهم:

ما بناءات سوء الفهم هذا؟ لست في هذا الحديث بصدد استعراض القضايا السياسية التي تتعارض إزاءها الرؤى والمواقف بين أمريكا والعالم العربي، ولا بتفنيد تلك الرؤى والمواقف. ما سأحدث عنه هو مناخ سوء الفهم المتبادل الذي أراه يعطب التعامل مع تلك القضايا، ويؤدي إلى تفرغ الحوار وتكريس الخلاف. لقد قيل في أديباتنا أن السخط يبدي المساوي، ونحن والأمريكيون ساخط بعضنا على بعض. قيل أيضاً أن من لا يحسن الظن بك لا يتعقل خطابك، وربما في ذلك ما يفسر كوننا والأمريكيين إزماناً في حوار مجذب.

لأستعرض، إذن، ما أجد من بناءات سوء الفهم لدى العرب إزاء الولايات المتحدة، وهي مما تردد، تصريحاً حيناً وتلميحاً حيناً آخر، في سائر الكتابات، في الإعلام، وفي الحديث العام والخاص. ثم لأستعرض ما أجد منها لدى الأمريكيين إزاء العرب، وهي أيضاً مما تردد، تصريحاً حيناً وتلميحاً حيناً آخر، في سائر الكتابات، في الإعلام، وفي الحديث العام والخاص. ما يظهر من هذا التناوب في الخلف يستخفي في الواجهة: أي في التحوار بين السياسيين والدبلوماسيين من الجانبين. لكن ظلال هذا التناوب تبقى مخيمة على وعي كل جانب لدى التعامل مع الجانب الآخر،

مهما تجاملا في ظاهر الحال. من ذلك ينشأ حوار متكلف، إن لم أقل نفاق متبادل، حيث كل يخادع الآخر، ولا يخدع سوى نفسه في المؤدى الأخير.

في الجانب العربي:

في الجانب العربي تسمع في التناؤد الخلفي أن الولايات المتحدة كيان قام على تصفية عرقية للسكان الأصليين، الهنود الحمر، وإذن فهو من مبتدأ التأسيس كيان قسري، مفتقر إلى منشأ شرعي أو مرتكز خلقي. وتسمع أن أمريكا مجتمع نشأ مستغلا، إذ بنى صرحه الاقتصادي ابتداء على استرقاق الأفارقة واستغلال عمال مسخرين. تسمع أيضا أن أمريكا ليست أمة بالمعنى الصحيح: أنها بالأحرى تجمع أناس غير متجانسين - شذاذ آفاق لفظتهم مجتمعاتهم فغامروا بالهجرة إلى عالم جديد. لذا، لا توجد أصالة في الخبرة الأمريكية، وما يوجد هو فلتان فكري وخواء خلقي يجحدان معا القيم والأعراف التي استقرت عليها البشرية منذ القديم.

وتسمع إذا أصغيت بعد، أن أمريكا مجتمع ملادي بحت، لا يعرف للمعنوية أو الروحانية معنى يذكر، وأن حافظ هذا المجتمع فيما يبتكر وينتج مما ينفع الناس حافظ تجاري صرف. من جراء هذه النزعة المادية الصميمة تنهب أمريكا ثروات الأمم. من جرائها أيضا تشن أمريكا حروبا ظالمة، وتحمي بالقوة أنظمة سياسة فاسدة ترعى لها مصالحها ضد رغبات الشعوب.

ثم تسمع من يقول أن أمريكا لا تعرف الأخلاق ولا تمارس الفكر، ولا تعنى بحقوق الإنسان بصدق. أنها بالأحرى تمارس قسريا قوة بنتها بطم سخرته لبسط الهيمنة على الآخرين. أخيرا، في أيما حديث عن أمريكا يؤكد دأبا أن الزمام الأمريكي في قبضة اليهود، سياسيا، استراتيجيا، اقتصاديا، إعلاميا، أكاديميا، وفي غير ذلك، وأن هذا التحكم اليهودي هو ما يصوغ القرار الأمريكي آخر النهار.

غياب التوازن:

لا أظن أنني أخطأت كثيرا أو بالغت، في استقراء بعض ما يروج عن الولايات المتحدة من انطباعات في الحديث العربي. لا أزعم أن ليس لهذه الانطباعات قسط من الصحة أو أساس في حقيقة الأمر. لا أرى أن لا يعبر عن هذه الانطباعات أو أن لا يذكر مثلها على الإطلاق. لكنني أزعم أن من الأجدر النظر إلى كلية الصورة لا جزئيتها، وذكر الحسنات إلى جانب السيئات، ابتغاء الموضوعية واتقاء التعصب. إن الحسنات يذهبن السيئات، بذلك ينبئنا القرآن الكريم. ويدلنا العقل على أن من الحصافة تأكيد الحسنات لأجل ترجيح حسن الظن.

جدير أن يذكر، مثلا، أن أحفاد الأمريكيين الهنود، وأحفاد الأمريكيين الأفارقة، وأحفاد العمال المسخرين، اليوم مواطنون متساوون مع أحفاد من لقي أجداد هؤلاء من أجداد هؤلاء أذى بالأمس، وذلك بفضل التطور المدني المتواصل في خبرة هذه الأمة منذ التأسيس ... أنه بالرغم من تعددية ثقافات المنشأ، صهرت الخبرة الوطنية الأمريكية الوافدين في تجانس ثقافي تحت وحدة دستورية وتكافؤ أمام القانون ... أن حرية المعتقد الديني صينت للجميع في دستور فصل الدين عن تقرير الشأن الوطني، وحظر على الدولة اتخاذ دين لها، أو إعلاء دين على دين ... أن الأصالة بمعنى السلفية تعوق التطور، وأن اعتناق الخبرة الأمريكية بدأ من وصاية القديم هو ما حرك فكرها وأطلق يدها في استكشاف الجديد.

جدير أيضا أن يشار أن المجتمع الأمريكي ليس مادويا بأكثر من المجتمع العربي حيثما تتوافر أسباب المادية لدى العرب، كما هو الحال في مجتمعات النفط، ... أن الابتكارات الأمريكية المستفاد منها عالميا، بل المعول عليها في جل الاحتياجات البشرية المعاصرة، هي ثمار عقول تهوي العلم وتتشد الخير أكثر منها ثمار عقول تلهث وراء مال أو تبتغي بسط نفوذ ... أن الإنفاق الخيري لدى الأمريكيين أكثر منه لدى كثير من الأمم ... وأن المساعدات الأمريكية لدول فقيرة، بما بينها دول عربية، وبما في ذلك إعفاء ديون مستحقة، أمر يجدر أن يذكر.

ولنتفكر بشكل عريض: أهو في المحصل الأخير استغلال أن يأتي من يستخرج لك ثروة من عمق بر وبحر لم تكن لتسخرها باقتدار ذاتي؟ أهو بسط لنفوذ أن يشخص لك الداء ويوفر لك أسباب الوقاية والشفاء؟ أهو نهب أن يستنبط لك علما ويبتكر لك معدات ومهارات تطور بها حياتك للأحسن؟ ولنتذكر تحديدا: أهو إسهام زهيد تطوير الإنتاج الزراعي حتى أمكن معه إنهاء مجاعات كانت نفتك دأبا بالملايين عبر العالم حتى عهد قريب، وأمكن تباعا إطعام ستة بلايين إنسانا مدار الأرض في هذا الحاضر؟ أهو عمل بخص تيسير التواصل والسفر، وتنظيم التجارة والائتمان المالي، كما هو ميسر لنا اليوم؟ أهو جهد طفيف هذا البناء الدؤوب لمعرفة الإنسان عن الكون والحياة وعن نفسه، ثم توفير تلك المعرفة في مناهج المدارس والجامعات عبر العالم لتناول أجيال صاعدة؟

ليست أمريكا، بأي معيار متوازن، قوة شر في العالم، بل وإن لها مآثر خير تمس حياة الناس يوميا في كل مكان. ليست أمريكا مجتمعا منقلتا فكريا، ففي ريادتها في العلوم الطبيعية والإنسانية وابتكارها نظما وتكنولوجيا يستفيد منها الناس في كل مكان عطاء فكري حميد وغزير. ليست أمريكا مجتمعا خاويا خلفيا، ففي سبقها في دسترة حقوق المواطنة، تقنينها للحريات المدنية، عملها لأجل تعميم الديمقراطية، دعمها لحقوق الإنسان، استقبالها لملايين الوافدين

الجدد من شتى المثل والثقافات، شواهد خلقية لا تنكر. أخيراً، خلاف ما يُظن عربياً ويؤكد، القرار القومي الأمريكي يصنعه الأمريكيون من خلال تنازع وتجاوز، لا اليهود. نعم، المواطنون اليهود طرف مؤثر في صنع القرار الأمريكي نسبة إلى قضايا الشرق الأوسط، لكنهم ليسوا صانعي القرار. بنظري، بقدر ما يستوعب العرب موضوعاً طبيعياً العملية السياسية الأمريكية بمفاهيمها وضوابطها وتوازنها ودوافعها الذاتية، يغدون أقدر على تلمس طرق التأثير في القرار الأمريكي، ويغدون أكفأ في التعامل معه موضوعياً، دونما تعقد أو تعقيد.

مع ذلك، ما من أمة تغتر بنفسها إلا وتخطئ، وأمريكا اغترت بنفسها فأخطأت في فيتنام خطأ جسيماً دفعت ثمنه بأرواح مواطنيها، باضطراب وثامها الوطني، وبتراجع اعتبارها بين الأمم. أمريكا لا تزال تخطئ إذ هي تحمي أنظمة سياسية فاسدة، تحسب أنها سترعي المصالح الأمريكية على نحو حقيقي مستديم، وظني أنها توشك أن تتبين خطأ هذا التحسب فتتداركه بالتصحيح بدعم توجهات الإصلاح. وأمريكا تخطئ خطأ فادحاً إذ هي تستمر في تحيزها للباطل الأسرائيلي وجفاتها للحق العربي في فلسطين، تحسب أن الارتباط بإسرائيل كحليف استراتيجي يغني عن كسب صداقة العرب لأجل حماية المصالح الأمريكية في الوطن العربي. هنا أيضاً أجد أمريكا تتدارك خطأ رست عليه طويلاً، أضرت به العرب وتضررت به، وأجدها تبادر إلى تصحيحه بدعم قيام وطن فلسطيني مستقل.

لقد حاولت الدبلوماسية العربية على مدى عقود مضت إقناع الأمريكيين بظلامه موقفهم من حقوق شعب فلسطين، دونما جدوى تذكر. أحد أهم أسباب هذا الإخفاق، بنظري، علاقة عربية أمريكية مضطربة أضعفت الثقة لدى كل جانب في الجانب الآخر طوال عقود الحرب الباردة، وإبان العقد الأخير، وراكت سوء فهم متبادل فرش ظلاله على التعامل بين الجانبين. إن الهم الأول لدى الدول في المعتاد هو حماية أمنها ومصالحها الحيوية، وحيثما تستشعر، صواباً أو خطأ، تهديداً لأيهما، مستظهِراً أو مستبطناً، تصد التهديد وتتصدى لمصدر التهديد. شئني كثير من هذا المنطلق والمنطق تسرب إلى العلاقة بين أمريكا والعالم العربي فأعطيها، وقد أن يزال لصالح علاقة مريحة ومطمئنة للجانبين... علاقة تؤكد وجهة التعاون لا التصادم، وتمهد لتحقيق حل عادل، شامل، ودائم في فلسطين.

في الجانب الأمريكي:

لقد تناولت حتى الآن نصف المشكل، فلأنتقل إلى النصف الآخر - تحديداً: إلى بنايات سوء الفهم التي أجدها لدى الأمريكيين إزاء العرب.

استدعاء، أستشف نظراً في الحديث الأمريكي أن ما عاد العرب أمة واحدة، لذا لا مبرر لتعامل أو تخاطب معهم على أساس قومي... أن كان العرب أمة فلم يتمسكوا، ففرقوا في شعوب أضحت متغايرة النظام والظرف والهم والوجهة، وبذلك فقدوا سمات وفاعليات الأمة الواحدة... أن كانت للعرب حضارة مشهودة، لكنها انحصرت من يوم أن آثرت النقل على العقل، والفرديّة على الشورى، في تنظيم الشأن الحياتي وتقرير قاعدة الحكم.

استقرأ نظراً مؤداه أن البعثرة العربية تخدم الغرض الأمريكي، لذا يؤثر استمرارها، إذ لو تماسك الواقع العربي لصعب ترويضه: لاستغنى عن غطاء استراتيجي خارجي، لشكل مصدر ضغط إزاء أمور حيوية في التعامل الثنائي والدولي، ولأضحى ذا تأثير ذاتي قوي في دفع القضية الفلسطينية إلى حل مقبول عربياً وغير مريح لإسرائيل. لذا، لا يدعم أو يشجع أي سياق تضامني عربي، لاحتمال أن يرفع من قدرة العرب الجماعية على التأثير في سير الأمور.

استقرأ انطباعاً أن العرب في حال عجز مستديم. فبالرغم مما تتوافر حواليتهم من أسباب الحدائه، من علوم ومهارات وإمكانات هذا العصر، فإنهم فقدوا قدرة الاقتباس والتطوير، تلك التي امتلكوها يتفوق إبان عصرهم الذهبي. في هذا الحاضر، الرفاهية الميسرة بالثروات النفطية لدى بعض منهم، الاستئثار بالسلطة واحتكارها ضمن أسرهم لدى البعض الآخر، والتشبث لدى مجتمعاتهم عامة بمفاهيم لم تعد تستقيم مع مفاهيم هذا العصر، أو تستوفي متطلبات تنمية إنسانية جامعة... كل ذلك يقعدهم عن استصلاح ذاتي جدير.

نوعية الحكم والحكام في دنيا العرب في الانطباع الأمريكي مخبر صادق عن حال العرب. مقولة "مثلما تكونوا يولى عليكم" - وهي من مستخلصات الخبرة العربية ذاتها - قلما تعكس صدقية بمثل ما تعكسها في دنيا العرب. بالنتيجة، العرب من التخلف بحيث لا يتوقع أن تتكون لديهم قريبا قابلية استيعاب مفاهيم هذا العصر، أو رغبة ترجمتها إلى واقع الحياة الوطنية - مفاهيم كالديمقراطية، وحقوق الإنسان، والمواطنة المتكافئة في الحقوق السياسية والمدنية بين المواطنين كافة، وبين الذكور منهم والإناث.

أخيراً، استقرأ نقداً أن المفكرين والكتاب والخطباء في دنيا العرب ما زالوا في الغالب ينظرون لنموذج معرفي سلفي - أنهم ما زالوا يجترون الماضي أكثر مما يستنبطون الحاضر أو يستطلعون المستقبل. بذلك تحجب في الخبرة العربية إزماناً وإمكانات التطور، تصد مبادرات الإصلاح، ويهزم طموح التقدم. بذلك يغدو التراوح في المكان، كمانع للتراجع على الأقل، إنجازاً في حد ذاته.

غياب التوازن:

هنا أيضا لا أظن أنني أخطأت كثيرا أو بالغت في استقراء بعض ما يروج عن العرب في الحديث الأمريكي. لا أزعج أن ليس لهذه الانطباعات قسط من الصحة أو أساس في حقيقة الأمر. لا أرى أن لا يعبر عن هذه الانطباعات أو أن لا يذكر مثلها على الإطلاق. لكنني أزعج أن من الأجدر النظر إلى كلية الصورة لا جزئيتها، وذكر الحسنات إلى جانب السيئات ابتغاء الموضوعية واتقاء التعصب. إن الحسنات يذهبن السيئات، بذلك ينبنا القرآن الكريم. ويدلنا العقل على أن من الحصافة تأكيد الحسنات لأجل ترجيح حسن الظن.

بنظري، مع أن لهذه الانطباعات ما يشفع لها في ظاهر الحال، إلا أن نظرا أدق قد يوصل إلى فهم وتفهم أرحب. صحيح أن ما عاد للعرب كيان جغرافي-سياسي موحد، لكن لا يزال لهم واقع قومي يحفظ فيهم شعورا قويا بوحدة الانتماء. نشهد ذلك في التفاهم حول الهم القومي المشترك من وراء ما لهم من اهتمامات قطرية متعددة، بل وأحيانا متعارضة. نشهده في دفاعهم عن أية أرض عربية تتعرض لمطعم استلاب خارجي، في تعلقهم بوحدة الوطن من وراء تعددية الأقطار، في تقديمهم الهوية العربية في تعريف أنفسهم لدى الأمم على هوية القطر، في تمسكهم بالثقافة العربية كثقافة أم، وفي قناعتهم المشتركة بوحدة الخبرة التاريخية ووحدة المصير.

نشهده بشكل أوضح وأؤكد في تضامن العرب إزاء الحق الفلسطيني في النزاع مع إسرائيل، وفي امتعاضهم من الموقف الأمريكي المتجاهل للحق الفلسطيني. لدى معظم العرب، صعب جدا الاقتناع بأن الولايات المتحدة، بما تمتلك من إمكانيات متعددة ومتفوقة، بما لها من دراية متعمقة وبعد نظر في سياق العلاقات بين الأمم، وبما لديها من حس متميز بقضايا العدالة والديمقراطية وحقوق الإنسان... أن تعجز، رغم ذلك، عن إيصال القضية الفلسطينية إلى مستقر منصف ومعقول. الأرجح، إذن، أن أمريكا تستطيع، لكنها لا تريد... أن هناك إغراضا سياسيا يؤثر استبعاد الحل واستبقاء النزاع. إن من الصعب لوم العرب على استنتاج كهذا وهم يشهدون نجاعة الإسهام الأمريكي في حل مختلف قضايا العصر.

وصحيح أن ما كان للعرب فيما مضى من حضارة متألقة لم تعد متألقة اليوم. لكنها حضارة ما زالت حية في الوعي العربي. إنها لا تزال مستودعة ما تنامي فيها في قرون خلت من قابليات ارتقت بها في شتى المعارف والخبرات حتى سرى خيرها وعم أثرها في خبرات سائر الأمم. إن التجزء الجغرافي-السياسي لا يعني التفكك الحضاري. حضارة العرب، أو سمها باسمها الأعم، حضارة الإسلام، سادت لكنها لم تبد أو تندثر. إنها لا تزال تستحضر في وعي الإنسان العربي المُثل التي يمكن أن تبصر فكره، تقوم مسئله، وتنظم حياته على نحو أرشد وأوفق. إنها لا تزال تحذره من مغبة الخمول، والجهل، والترف، والعلو، والإثرة، والتمايز بالنسب، والقرديّة في الحكم، وتطالبه بالمجاهدة، والتعلم، والاقتصاد، والاعتدال، والمساواة بين الناس، والشورى في الحكم والحياة. إنها لا تقفأ تحته على التعارف مع الأمم، على اقتباس النافع مما تنجزه، وعلى التعاون معها في إعمار الأرض وتوفير الأمن واليسر في حياة الناس. نعم، إنها حضارة ركبت، لكنها لم تندثر، بل إنها تنتظر من أهلها تفعيلا مستتيرا واستظهارا من جديد.

مسيئ بالعلاقة العربية الأمريكية أن يبقى الحديث الأمريكي مصرا على ترديد ما يراها أوجه قصور في الحال العربي وكأنه يريد تكريسها بالترديد. أجدر به أن يستطلع من وراء القصور ما تحيا في الخبرة العربية من إيجابيات حفظت لهذه الأمة تماسكها وتواصلها الحضاري عبر قرون طويلة اضطرب خلالها الحال العربي أيضا اضطراب. أجدر به أن يتلمس ما لا يزال يشع في النفس العربية من نطع نحو الأقطب والأقوم والأرحب والأوفى في هذه الحياة، للنفس وللغير. تحديدا، لا يجدر بالحديث الأمريكي أن يعادي أو يتجاهل حقيقة طموح العرب إلى وضع ديمقراطي تضامني أمثل يصلح به حالهم، يلتم به شملهم، ينتظم به أمرهم، تتعزز به ثقافتهم... وضع يمكنهم من تفعيل قابلياتهم الحضارية جماعيا من جديد.

بنظري، أيضا، خاطئ التحسب الأمريكي أن التضامن والإصلاح السياسي لدى العرب من شأنهما تصعيب التعامل الثنائي. عكس ذلك، التضامن والإصلاح أدني أن يزيلا التردد والتبعثر في القرار العربي، وأجدر أن يكسبها ثباتا وسدادا وتقبلا على صعيد الأمة ككل. كل هذا من شأنه أن يجعل القرار العربي أركز أساسا وأصلح إطارا لبناء علاقة عربية أمريكية متينة، جامعة، متطورة، متوازنة... علاقة تصون وتلمي أهم ما يتصل بمصالح الأمتين.

نعم، الواقع العربي في حاضره واهن ومعتوب، وعن وهذه وعطبه، حدث - كما يقال - ولا حرج. لكنه ليس بواقع عاجز مطلقا، أو عقيم أفرغ من مكنة التطوير. هو واقع ما زال مفتحا على النفث والبعث، وعلى الدفع إلى نهوض حضاري. تلك طبعا مهمة عربية ذاتية، لكن حديثا أمريكيا مشجعا، مستحفزا، ومنما عن صدق الرغبة في أن يكون للعرب كافة غد أفضل، سيبعث ثقة متبادلة وحسن ظن.

ليست مفاهيم هذا العصر، أو بالأحرى، ترجماتها الدستورية المعاصرة - تحديدا: الديمقراطية، حقوق الإنسان، الحريات المدنية، التساوي أمام القانون، التكافؤ بين الذكور والإناث - محجوبة عن العقل العربي ولا مرفوضة منه، ولا نابية لديه. ليست نقيضاتها مقبولة عنده أو مستساغة لديه. في المنظومة القيمية العربية، المستمدة من الإسلام الحنيف، سعة لهذه المفاهيم، عمق في إدراك مقاصدها في تقويم وتطوير خبرة البشر، وندب إلى ترجمتها إلى الواقع المعاش. نعم، يوجد في الخطاب العربي الداخلي في هذا الحاضر إغراض عن هذه المفاهيم وإقبال مبالغ على الماضي ومآثراته. لكنك إذا أمعنت، ألفت ذلك عاكسا نزعة نفسية للتحصن بمعلوم سلفي في وجه تعرض لمجهول عصري، في

حالة ضعف شديد. بزوال حالة الضعف، باستعادة الثقة بالنفس، بالاطمئنان إلى العالم الخارجي، بتحسس جدارة الذات من جديد، أرجح أن يجد العرب في أنفسهم قدرة وهمة على الاستصلاح بحجم كبير. من هنا أزعج أن هنالك فارقا يجدر بالحديث الأمريكي أن يستوعبه، وبين واقع الأمة العربية من جهة وتطلعاتها من الجهة الأخرى، وأن يتصرف من وعي بهما ومراعاة لهما معا في آن واحد. لقد قيل أن الصديق من لا يعيب بواقع حال منقوص، أو من يستغله. إنه بالأحرى من يشجع، بل يعين، على تجاوزه إلى حال أوفى وأفضل. الحديث الأمريكي مدعو أن يتبنى خطاب صديق للأمة العربية كافة، وليس لقطر عربي دون آخر. إنه مدعو أن يراعي شعور وحدة الأمة لدى العرب، من وراء التعامل مع حكومات متعددة. إنه مدعو أن يلمس الجدارة الحضارية للأمة العربية، لا جدواها كخزان نפט. إنه مدعو أن يحاور جماهير العرب، لا مؤسسات الحكم فحسب. ذلك أدنى أن يزيل سوء الظن، يرجح سلامة القصد، يحفز على التعاون، ويوصل إلى حلول مرضية حول قضايا حيوية معلقة بين الجانبين.

دعوة للارتقاء:

من مجمل ما عرضت، أرجو أن يكون قد اتضح أن ما أدعو إليه هو تخلص العلاقة العربية الأمريكية مما يلازمها من تصدع وتآزم، وأن ما أتصح كمدخل إلى ذلك، كأمر أول وأساس، هو تخفيض الصوت، تهذيب القول، وتقديم الإيجابي على السلبي في حديث كل منا عن الآخر. لقد قيل أن الكلمات إما تخدم أو تسيطر: حيث تخدم ترشدنا للصواب، حيث تسيطر تغمر عقولنا بانفعال يفقدنا الصواب. أن نؤكد ما هو جدير فينا وبيننا محل ما هو غير جدير، أن نذهب المساوئ بالمحاسن، أن نعي دوما أن لا أحد منا يستغني عن علاقة طيبة مع الآخر، أن نستشعر مسؤوليتنا سويا إزاء تجنب أجيالنا الصاعدة تبعات خصام مضمّن وعقيم... كل ذلك سيهيننا معا لاستقبال عهد تعاوني جديد.

استقدام هذا العهد الجديد مهمة أراها في عاتق الكتاب والإعلاميين وصانعي الرأي عامة في المجتمعين أكثر مما أراها في عاتق الحكومات. وراء ذلك، هي في عاتق أي واحد منا يثمن علاقة عربية أمريكية جيدة كجزء هام من منظومة تعايش الأمم كافة سلميا وتعاونيا في هذا العالم المزدهم. هي مهمة تطالبنا أن نمارس حوارا بناء من نوع يشرح ولا يجرح، يعرض ولا يفرض، يقارب ولا يبعد، يعتمد الحق ويحتكم إليه، ويحرص على التواصل والتواد حتى في أحلك الظروف.

من عناية الله بالبشر أنه إذ أكلهم إلى أنفسهم ليميزوا بين الصواب والخطأ، أودع فيهم قدرة التصحيح حينما يخطأون. سوء فهم الآخر خطأ قابل، بل مستوجب، للتصحيح. بل وإن مما أودع الله من قابليات الخير في الإنسان أن مكّنه من قلب كره إلى ود، وعداوة إلى صداقة. إلى تفعيل هذه القابلية في أنفسنا يدعونا القرآن الكريم، منبها أن إحداهن تحول جذري في حال الخصم يتطلب تأكيد الحسن من القول والعمل، كما يتطلب صبورا وسمو خلق: باسم الله الرحمن الرحيم: ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم. وما يلقاها إلا الذين صبروا، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم. وإما ينزغتك من الشيطان نزع فاستعد بالله، إنه هو السميع العليم.

أعتقد ليس كثيرا أن تطالب أنفسنا - أمريكيين وعربا - بالارتقاء معا في علاقتنا ببعض إلى هذا المستوى الإنساني المثيل. أعتقد أن لا بديل لنا معا عن مثل هذا الارتقاء، لنحقق توافقا، ونتجنب تنافرا، بين حضارتين عظيمتين.

شكرا

صادق جواد سليمان

(مفرد نحات سابقا في واشنطن)